

مشروع التاريخ الكبير، هل هي محاولة إخضاع التاريخ لحتمية التطور؟

The Big History Project, is it an attempt to integrate History to the
Evolution's determinism?

أحمد رنية¹ Ahmed Renima

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

Ahm.renima99@gmail.com

نشر: 25/12/2024

مقبول: 06/12/2024

استلم: 20/07/2024

ABSTRACT: *Big History, a new approach to study and interpret history, have emerged Since the 1980s. Group of researchers have tried to reviewed theories of the past events study, such as the cyclical and cultural theory of Ibn Khaldoun. (1406), Toynbee (1975), Hegel's dialectical theory (1830) and historical Materialism of Marx (1883). In addition to the French Annals School and other doctrines..., this "transgression", which took place with the leaders of the big History Project, sought to bring about a change in the subject, sources, times and Methods that of History as a scientific knowledge. The Big Bang was the beginning of history. In this new project, History includes natural history, Human history, Geography ecology and all other fields of science.*

KEYWORDS: *History, Big History, Theory of Evolution, Philosophy of History, History of Science, Cosmology.*

الملخص: ظهرت منذ ثمانينات القرن العشرين، بوادر مقارنة جديدة لتفسير التاريخ، سميت بمشروع التاريخ الكبير Big History Project حاول المتحمسون له تجاوز النظريات السابقة، كالنظرية الدورية والحضارية ابن خلدون (ت1406م) وتوينبي (ت 1975م) والنظرية الجدلية الفكرية لهيغل (ت 1830م) والمادية التاريخية مع ماركس (ت1883م)، بالإضافة إلى مدرسة الحوليات الفرنسية ومدارس أخرى...، فهذا "التجاوز" الذي حصل مع رواد مشروع التاريخ الكبير، كان يسعى إلى إحداث تغير على مستوى الموضوع والمصادر والأزمنة التي تميز المعرفة التاريخية. فإنَّ أطروحة التاريخ الكبير تنطلق من الاعتقاد أنَّ الانفجار العظيم كان بداية التاريخ، فالمعرفة التاريخية في هذا السياق تشمل التاريخ الطبيعي، وهي تنطلق من أنَّ الكون نظام واحد وموحد، يشمل

الفضاء بأجرامه والارض والحياة والبشر، وعلى العلماء والباحثين طلب المعرفة والادلة العلمية والتجريبية من أجل معرفة واستغلال ماضي أثر الحياة في الكون والعلاقات التي تربطها.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، مشروع التاريخ الكبير، نظرية التطور، فلسفة التاريخ، تاريخ العلم، الكوسمولوجيا.

1. تمهيد

ينطلق أنصار مشروع التاريخ الكبير من طرح الأسئلة التالية التي يمكن أن تقدم مبررات أو تفسيرات لمشروعية مشروعهم، حيث يمكن إجمالها فيما يلي: ما هو التاريخ عموماً؟ قد يقول معظم الناس أنه الاحداث الماضية، ولكن إلى أي مدى يمتد الماضي؟ إلى المصادر المكتوبة الأولى القديمة؟ والأشكال أخرى من الأدلة التي تكشف عن حضارات ما قبل والكتابة؟ ماذا يعني هذا المصطلح: إمبراطورية، أمة، مدينة، قرية، عائلة، ناسك وحيد في مكان ما؟ ألا يجب أن يشكل التاريخ أيضاً البيئة التي يعيش فيها الانسان، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو حجم تلك البيئة وإلى أي مدى يعود وجودها؟ وطالما أننا نسير في هذا الاتجاه، فلماذا نتوقف مع ما نراه: الأرض والنظام الشمسي؟ لماذا لا تعود إلى الانفجار العظيم نفسه؟¹ من الواضح أنه لا يوجد إجماع حول كيفية الإجابة على هذه الأسئلة، ولكن حتى طرحها يثير مجموعة أخرى من الأسئلة حول موضوع التاريخ: من هو المؤهل الذي يمكنه الإجابة، فهل هم المؤرخون الذين تدربوا وتمرسوا على البحث من خلال الوثائق المكتوبة بمختلف أشكالها. والتي تعد مصدرهم الوحيد للمعرفة؟ وهل المؤرخون المستعدون لتجاوز الوثائق والتحول إلى علماء نفس وعلماء اجتماع وعلماء أنثروبولوجيا وعلماء آثار؟ وحتى وإن أخذوا بعين الاعتبار المحيط والبيئة الطبيعية ألا يتعين عليهم أيضاً معرفة شيء عن علم المناخ وعلم

¹ - KRAKAUER, DAVID C. & GADDIS JOHN, LEWIS. & POMERANZ, KENNETH. History, Big History, & Metahistory. Santa Fe Institute Press. <https://www.sfiexpress.org/books/history-big-history-metahistory>. Retrieved: 6th of March 2024.

الأحياء وعلم الحفريات والجيولوجيا وحتى علم الفلك؟ وكيف يمكنهم فعل ذلك دون معرفة بعض الفيزياء الأساسية والكيمياء والرياضيات؟²

إذا كان تعريف التاريخ بأنه دراسة الماضي البشري، وتعقب أحداث الأفراد والمجتمعات والشعوب والدول، والبحث في الانجازات الحضارية العلمية والفنية الكبرى، وكذلك دراسة التشكيلات الثقافية والدينية والعلمية والتقنية وغيرها، وكل هذا من خلال ما حصل عليه المؤرخون من وثائق مكتوبة، وما تمكن البشر من تسجيله بأشكال عدة وبألسن شتى وعلى وسائط كثرة، فإن أطروحة التاريخ الكبير تنطلق من الاعتقاد أنّ الانفجار العظيم كان بداية التاريخ، فالمعرفة التاريخية في هذا السياق تشمل التاريخ الطبيعي، وهي تنطلق من أن الكون نظام واحد وموحد، يشمل الفضاء بأجرامه والارض والحياة والبشر، وعلى العلماء والباحثين طلب المعرفة والادلة العلمية والتجريبية من أجل معرفة واستغلال ماضي أثر الحياة في الكون والعلاقات التي تربطها. كما يدرس التاريخ الكبير كل الحقب والازمنة الممكنة والتي يقدم لنا العلم البشري معارف عنها، منذ وجد الكون إلى اليوم، وتركز نظرية التاريخ الكبير على الكون وتعطي الانسان موقع المركز الفاعل والمؤثر فيه.

2. التاريخ الكبير، مفهومه وظروف نشأته

يقصد بالتاريخ الكبير ذلك الحقل العلمي والمعرفي الذي ما يزال في طور التشكيل، فهو مشروع يهتم بدراسة التاريخ منذ الانفجار العظيم إلى يومنا هذا. ولما كانت هذه الحقبة طويلة من الناحية الزمنية، وتمتد لمليارات السنين، فإن أنصار هذا المشروع قد لجئوا إلى استثمار حقول علمية متعددة ومتنوعة من العلوم التجريبية إلى المعارف الإنسانية ضمن نسق يحاولون ضبطه أبستمولوجيا باستمرار.³ وبهذا الشكل يلغى التحقيق المتداول وتصير لحظة استعمال

² - Ibid.

³ - CHRISTIAN, D. (2011). *Maps of time: An introduction to big history* (Vol. 2). University of California Press.

الكتابة وكتشاف أقدم نص مَدُون على سطح الأرض مجرد لحظة زمنية عابرة زمن
الكتابة.⁴

من أجل تفسير الوجود الإنساني ضمن هذه التشكل العظيم للكون⁵ ويتضمن هذا التاريخ الكبير الكون Cosmos والأرض والحياة البشرية، ويحاولون الاستناد إلى الأدلة العلمية التجريبية من أجل استكشاف العلاقات التي تربط الأسباب والآثار⁶ وهذا ما يقابل العلل والغايات بمفهوم الفلسفة الكلاسيكية، كما يقترح رواد هذا المشروع أنه من الأجدر على الجامعات ومدارس التعليم الثانوي تدريس التاريخ الكبير وفق أنظمة تفاعلية بأدوات تقنية متطورة (تكنولوجيا المعلومات) من أجل تقديم دروسها وتسهيل عملية الفهم والاستيعاب.⁷

يعد دافيد كريستيان David Christian من بين أهم المؤسسين لمشروع التاريخ الكبير، حيث يعتبر هذا الاتجاه حركة فكرية مشكلة من طرف تجمع غير معتمد من العلماء.⁸

4 - ظهور الكتابة، يعد هذا الحدث من أكثر المجاهيل التي لم يتب ضبطها إلى اليوم بسبب أن ما تم اكتشافه حديثاً أي: ألواح سومر ما هو سوى نتيجة مجهودات علماء الآثار ولكن الحقيقة الممكنة أن الكتابة يمكن أن تكون قبل هذه التواريخ 3500 أو 3200 سنة قبل الميلاد، لكن عوامل الزمن وانحسار الأبحاث الأثرية قد حرمتنا من معرفة أجزاء مهمة من الماضي البشري. كما أن ظهور أنظمة الكتابة المختلفة في بلاد الرافدين أو مصر أو مناطق أخرى لا يعني بالضرورة بداية التاريخ في معظم مناطق العالم المأهولة، بل أن لكل منطقة تاريخ يبدأ من استعمال الكتابة فيها أو الكتابة عنها.

⁵ - STEARMS, P. N. (2005). *Growing up: The history of childhood in a global context* (Vol. 28). Baylor University Press. P 9. https://books.google.dz/books?id=ISKWp-8aYgIC&redir_esc=y

⁶ - STEARMS, op. cit. p 9.

⁷ - CRAIG, BENJAMIN. (July 2012). «Recent Developments in big history». History of Science Society. Vol.41, N°3.

⁸ - COHEN, PATRICIA. (September 26, 2011). "History That's Written in Beads as Well as in Words". The New York Times. Retrieved 2012-12-13.

هناك بعض المؤرخين من أظهر اعتراضات حول مسألة "التاريخ العلمي" باعتبار أن مدرسة التاريخ الكبير غير أصيلة⁹ والبعض الآخر وافق على الصفة والصيغة العلمية لهذا الاتجاه، لكن مستبعدا إدراج المعرفة الكونية (الكوسمولوجيا) والتاريخ الطبيعي ضمن التاريخ الكبير،¹⁰ مع العلم أن التاريخ الطبيعي الذي بدأت دراسته منذ عصر النهضة في أوروبا هو مجرد مرحلة بدأ فيها التاريخ الكبير وما يزال مستمرا حسب حجج رواد التاريخ الكبير. فالتاريخ الكبير هو دراسة للماضي في حقبة مختلفة منذ الانفجار العظيم حتى حاضرتنا هذا، وهو على خلاف التاريخ المعروف (العادي الكلاسيكي) الذي يبدأ بشكل نمطي مع ظهور العمل البشري المتعلق بالإبداع وظهور الحضارات أو بالأحرى الذي يبدأ مع ظهور الكتابة وتدوين الأحداث.¹¹

فالتاريخ الكبير يركز على المواضيع والنماذج، ولا يهتم عموما بحياة البشر إلا بعد مرور فترة زمنية أكبر بكثير من نصف عمر وجود الإنسان وظهور البشرية على الأرض، فلا تركيز إذن على الممالك والحضارات والحروب وحدود الدول¹² وإذا كان التاريخ المألوف يضع الإنسان في مركز أحداث الكون، فعلى الجنس البشري اليوم "مجددا" أن يجد موقعا

⁹ - HIGGITT, REBEKAH. (16 August 2012). "(Pseudo) scientific history». The Guardian. Retrieved 2012-12-13.

¹⁰ - <https://www.sociostudies.org/journal/seh/>

¹¹ - STAR, ALEXANDER. (book reviewer) Daniel Lord Smail (author of 'On Deep History and the Brain') (March 16, 2008). In "On Deep History and the Brain,"...

¹² - THORPE, VANESSA. "Big History theories pose latest challenge to traditional curriculum": Maverick academic's 'Big History'. (The Guardian, 27 October 2012). <https://amp.theguardian.com/education/2012/oct/28/big-history-bill-gates-david-christian> Retrieved 2012-12-13.

ضمن هذه المنظومة الكبرى وأن التاريخ البشري ليس أكثر من جزء من سياق التاريخ الكبير.¹³

فالتاريخ الكبير لا يقف عند تفاصيل الفترات التاريخية الكبرى، مثل تاريخ مصر القديمة أو عصر النهضة، سلاطة مينغ، بل أنه يعيد تحديد كل الماضي من خلال الآثار والإنجازات التي حققها العلم الحديث في مجال علوم الطبيعة والحياة وعلوم الفيزياء والكون، وعلوم الأرض والبيئة والمناخ وعلم المواد والحركة والعلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية وتاريخ الطبيعة وعلم السكان وكل هذه المعارف مضافة إلى التاريخ المعباري أو التاريخ التداولي Standard History.

لقد قدمت ستيفاني ماكفرسون بعض الحجج من أجل تقوية موقف مقارنة التاريخ الكبير حيث تقول: "إننا نقدم أفضل الأدلة من الفيزياء وأفضل الأدلة من الكيمياء وعلم الأحياء وتصوفها في قصة... فهذه الأدلة لن توصلنا إلى معادلة كيميائية ولكنها تبرهن لنا كيف ساهمت العناصر الكيميائية في موت النجوم وهذا أمر مثير حقاً.¹⁴ فالتاريخ الكبير جاء في القرن العشرين، ومعلوم أنه كان قرنا ظهرت فيه التخصصات العلمية وتم التفريق بينها بشكل جبري وسافر، فهو محاولة مهمة لإعادة وضع التاريخ ضمن البؤرة الأوسع للمعرفة الإنسانية وأن تكون الرؤية هي تقاطع لفترات متعددة ولمواضيع متنوعة.

لقد كانت من بين أهم مشاكل علم التاريخ المتداول هي تحديد الفترات والحقب ووضع تحقيق خاص لم يكن مناسباً تماماً ولا مقنعاً إلا للنخب الأوروبية التي كانت

¹³ - SPIER, FRED. (2008). "Big History: The Emergence of an Interdisciplinary Science?" World History Connected. Retrieved 2012-12-13.

¹⁴ - MCPHERSON, STEPHANIE. M. (2012). "5 big ideas that just might transform the classroom: From longer days to history courses that span 13.7 billion years, these notions just might transform the classroom". Boston Globe Magazine. Retrieved 2012-12-13. 1. <https://www.bostonglobe.com/magazine/2012/10/06/big-ideas-that-just-might-transform-classroom/SbrOrY1bEXcOZU0rDMLCGP/story.html>

متطلعة إلى الحركة الاستعمارية العالمية وما انجر عنها من آثار سلبية على شعوب وثقافات العالم غير الاوروبي.

لقد جاءت مقارنة التاريخ الكبير لتضع التاريخ البشري في سياق التاريخ الكوني، من بداية الكون حتى الحياة الراهنة على الأرض. وهنا انحرافا جذريا عن السبل العلمية الجامعية المستقرة في النظر إلى علم التاريخ البشري المعروف، إذ ينظر التاريخ الكبير إلى الماضي البشري من داخل الصورة الكلية للتاريخ الطبيعي وبدأ تشكل الكون بالانفجار العظيم. وبذلك، يحاول التاريخ الكبير تقديم قصة علمية حديثة حول كيفية صيرورة كل شيء إلى ما هو عليه الآن. فهو يقدم فهما جديدا من الناحية الجوهرية لماضي البشر، ما يسمح بتوجيه حياة الناس في الزمن والمكان بطريقة لم يفعلها أي تاريخ أكاديمي آخر حتى الآن. وأن مشروع التاريخ الكبير يساعد على إيجاد إطار نظري جديد، موحد لأكبر عدد من العلوم والمعارف المشترك في مبدأ واحد.

التاريخ الكبير تعبير ابتكره المؤرخ دافيد كريسيان، ففي ثمانينات القرن العشرين قدم كريستيان منهجا شاملا لتخصصات علمية في جامعة ماكواري، بأستراليا، قدم فيه جامعيون من بينهم علماء فلك ومؤرخين، محاضرات حول الأجزاء، التي تخصهم في الماضي الشامل بالكامل. وأصبح هذا المنهج الدراسي نموذجا لمنهج الجامعات الأخرى، بما في ذلك البرامج التي قت بتدريسها منذ العام 1994، أولا في جامعة أمستردام ثم بعد ذلك أيضا في جامعة إيندهوفن التقنية.¹⁵

صارت المعارف العلمية متاحة بشكل سهل ومتكامل وصار من اليسر معالجتها وفق منهاج التاريخ الكبير لكن المسألة الصعبة تتحدد في كيفية تقديمها على هيئة أساس تاريخي واحد. وتعود علة الصعوبة غالبا إلى أن الجامعات صارت تشمل عدد متزايد من التخصصات والأقسام. ورغم ذلك، فنذ الثمانينات كان المؤرخين الجامعيون وعلماء الفيزياء الفلكية

¹⁵ - سباير، فريد. (2015)، التاريخ الكبير ومستقبل البشرية، تر. عزت عامر، المركز القومي للترجمة، التنوير، القاهرة. ص 17.

يقدمون توليفات تاريخية جيدة وجديدة، يقترحونها ضمن مؤلفات ودراسات ضلت تحسن باستمرار.

قبل صدور كتاب دافيد كريستيان "خريطة الزمن: مقدمة للتاريخ الكبير" سنة 2012م والرواج الذي عرفه في الأوساط العلمية والجامعية العالمية، كان قد ظهر كتاب فريد سباير بعنوان التاريخ الكبير ومستقبل البشرية، صدر سنة 2010م¹⁶ ضمن منشورات دار Wiley-Blackwell الدولية، وتمت ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية من طرف عزّت عامر، ونشره المركز القومي للترجمة التابع لوزارة الثقافة بمصر بالتعاون مع دار التنوير بمدينة القاهرة. وحسب علمي فإن هذا الكتاب هو الوحيد المترجم إلى اللغة العربية حول موضوع التاريخ الكبير، ورغم أنّ الترجمة كانت متسعة ولغتها العربية لم تكن رصينة بمستوى القارئ العربي الأكاديمي، فإنه قدم مشهدا علميا "ثوريا" حسب الرؤية الغربية لتطور الكون والبشر.

يقول سباير: "في هذه الصفحات، أسعى إلى تفسير التاريخ الكبير. حيث يمثل هذا الكتاب أساسا جديدا لماضيينا الشامل بالكامل. وبشكل أكثر وضوحا، فإنه بناء على اعمال عالم الفيزياء الفلكية الأمريكي إريك شايسون، تم اقتراح نظرية تاريخية لكل شيء، حيث يتم تحليل التاريخ البشري كجزء من هذا المخطط الأكبر. في الفصل الثاني سوف يتم تقديم هذه المقاربة النظرية، بينما سيتم تطبيقها في الفصول اللاحقة على التاريخ الكبير. في هذا الفصل الأول، تتم مناقشة عدد مختار من الأفكار الرئيسية التي تعتبر جوهرية من أجل فهم أفضل للتاريخ الكبير"¹⁷.

لم يكن مجهود العالم الهولندي فريد سباير سوى لبنة تضاف إلى الاعمال الجزئية منها والشاملة التي حاول الكثير من العلماء والقليل من المؤرخين وضعها ورص بعضها لبعض من أجل جعل مقارنة التاريخ الكبير مقارنة أكثر علمية وأكثر إقناعا.

3. التاريخ الكبير ودراسة الماضي السحيق

¹⁶ - SPIER, FRED. Op. cit.

¹⁷ - سباير، فريد. مرجع سابق ص 18.

لفهم وجهة النظر عن التاريخ المقترحة، من المهم أولاً طرح سؤال حول كيفية دراسة الماضي. صاغها جامعة هارفارد دونالد أوستروفسكي Donald Ostrowski، إجابته بشكل محكم كما يلي: يمكننا دراسة الماضي بشكل دقيق، لأنه انتهى. ويقول هذا، فهناك إشارة إلى الحقيقة التي لا مراء فيها وهي أن الحاضر يحتوي أثار الماضي وفي مدونات التاريخ، تكمن المعرفة المتاحة الآن. وتلك هي حالة تاريخ الكون نفسها كما هي حالة تاريخ البشر. وعليه ففكرة أنّ كل المعرفة التاريخية الموجودة في الحاضر ليست وجهة نظر جديدة بين المؤرخين. ورغم ذلك، فمن النادر الإفصاح عنها بوضوح تام.¹⁸

وكان يأمل أوستروفسكي في التمكن من توضيح، مشروع التاريخ الكبير، وأنّ هذه القضية ربما تكون أكثر إلحاحاً مما هو موجود في الخطابات التاريخية القديمة. فالحاضر يحتوي على كل أدلة وحجج الماضي البشري والطبيعي وكتابة الماضي هو إعادة تفسير أدلة وأثار ما تم صياغته ووصل إلى الحاضر. يقوم الإنسان بذلك لأنه يدرك أنّ كلا من البيئة المحيطة والذوات هما جزء من هذه العمليات. فالخطابات ليست سوى عمليات إعادة بناء بشكل أو بآخر، في تتغير مع تغير الزمن. وعليه فإنّ الدراسة التاريخية تسعى إلى تقديم تفسيرات تقريرية وليس تأكيدات مطلقة للحالة التي كانت موجودة من زمن، فلا وجود لخطابات تاريخية حقيقية.¹⁹

ويواصل سباير عرضه: أنّ فكرة معرفة الماضي ما هي سوى فكرة ما وجد في الحاضر، تعني أيضاً أنّه من غير المعروف عن أي شيء حول الأمور التي لعلها قد حدثت ذات مرة، لكنها لم تترك آثاراً للحاضر. فالإنسان لا يعرف أي شيء حول الأحداث التي تركت آثاراً بالفعل ولم يتم اكتشافها أو تفسيرها. كل هذا قد يكون هو الجزء الأكبر مما حدث في التاريخ،

18 - سباير، فريد. مرجع نفسه ص 18.

19 - سباير، مرجع نفسه ص 18.

ورغم ذلك فلن نعرفه البشر أبداً بالتأكيد. ربما يكون من المثير للدهشة. أن هذا الجانب المثير للجدل في دراسة الماضي قد تلقى القليل من الاهتمام بين المؤرخين. ورغم ذلك لو أن الأمور كانت عكس ذلك، أي أن ما وقع تحت تصرف المؤرخين من معلومات شاملة حول كل شيء حدث في أي وقت، فإنّ البيانات المتوفرة اليوم قد تحدث اختلافات وفروق.

يحتاج الباحث حسب رؤية التاريخ الكبير ليعيد بناء خطابات تاريخية مقنعة إلى إنجازين إثنين، وهما كشف حقيقة ما تم تدوينه من بيانات تاريخية منذ نشأتها، بما في ذلك التي تمّ اكتشافها من طرف البشر. ثم كشف محتويات ما تم تدوينه من بيانات.

بالنسبة للتاريخ الكبير قد تقدم النظرة الشاملة لكاتب بيل برايسون،²⁰ الأكثر مبيعا تاريخيا مختصرا لكل شيء تقريبا تفسيرا للنوع الأول من الحكاية التاريخية. بينما يقدم العمل المباع الرائع لدافيد كريستيان خرائط الزمن: مقدمة في التاريخ الكبير مثالا لكلا نوعي إعادة البناء التاريخي.²¹

ففي الرواية العلمية للماضي التي يتم انتقائها بعناية، يجب استخدامها وفق تفكير عقلائي ذو معنى، من الناحية النظرية، وصياغتها بشكل ضمني أو بشكل صريح بكل إقتان، والحرص على عدم تطابق البيانات المتوفرة. رغم ذلك عادة ما تكون هذه ممارسة هذه الحالات نادرة، حيث تثير مجادلات طويلة لأجيال من المؤرخين والفلاسفة. ليس القصد تقديم نظرة شاملة حول هذه القضايا، رغم ذلك قد يكون من الاجدر تقدير الصفة الإنسانية المهمة التي تسمح بإنشاء عمليات إعادة بناء، هي القدرة على تمييز النماذج ورسم الخرائط. لأن البشر أكثر قدرة

²⁰ - BRYSON, B., & MATTHEWS, R. (2003). A short history of nearly everything (Vol. 33). New York: Broadway Books.

²¹ STEARNS, op. cit. p. 9.

على ممارسة العمليات العقلية من أي كائنات موجودة في الطبيعة. ولعل هذه القدرة الطبيعية الأولية قد سمحت للجنس البشري أن يصبح ما هو عليه الآن ويحقق كل ذلك التطور.²²

تتضمن دراسة التاريخ بالضرورة استخدام إطار الزمن الذي يسمح بتنظيم الأحداث التي تدرس تبعا لزمان حدوثها. خلال القرون الماضية، لقد توسع المؤرخون إلى حد كبير في جهودهم لإعادة بناء مثل هذا الإطار الزمني الجدير بالثقة حسب تتابع الأحداث، وهو ما أصبح العمود الفقري للتاريخ. وهذا الإطار الزمني التاريخي مركز على الأرض، بينما تتيح الأحداث المتكررة لمدار الأرض حول الشمس (السنوات) ودورانها حول محورها الخاص، (الأيام)، هي معالم ثابتة تُمكن من وضع وحدات قياس الزمن الكبرى كالقرون والسنوات والصغرى كالأيام.²³ تتطلب دراسة الفترة الزمنية للتاريخ الإنساني الحالي، نحو 10000 سنة، كانت هذه الحركات الدورانية مستقرة بما يكفي لثلاث تسبب مشاكل خطيرة. ورغم ذلك بمجرد فحص تاريخ الأرض، الذي يغطي فترة زمنية تقدر بنحو 4.6 مليار سنة، فإن دوران الأرض حول محورها قد يتباطأ باستمرار، بينما لا يمكن التأكد من أن مدارها حول الشمس لم يتغير هو أيضا. بعبارة أخرى، بما أنه من المحتمل أن السنوات كانت مختلفة في الماضي، فإن الأيام (نهار وليل) كانت أقصر أيضا إلى حد كبير.

ففي التاريخ الكبير، لا يجب اقتفاء أثر الأحداث رجوعا حتى بداية الكون، فمع التفكير الآن فيما قد حدث منذ نحو 13.7 مليار سنة، أي قبل ظهور الأرض والشمس بوقت طويل، تصبح هذه القضايا أكثر قسوة بكثير. من الواضح أننا لا نستطيع اقتفاء أثر بقايا الأحداث الكونية المبكرة بأية طريقة سوى رصدها في الحاضر من منظور أرضي. نتيجة لذلك، عند إنجاز عملية إعادة بناء التاريخ الكبير، لا مفر من استخدام إطار الزمن الأرضي

22 - سبباير، مرجع سابق ص 19

23 - سبباير، مرجع نفسه ص 21

الذي ينتهي في الحاضر. وليس هناك ببساطة أي إطار زمني آخر يمكنه أن يقوم بهذا العمل. لذلك فإن الإطار الزمني لحكايتنا التاريخية الكبيرة يتركز بالضرورة علينا. وهذا لا يعني بالطبع، أن تطور الكون يتركز على الأرض. بل يعني فقط أن حكايتنا عنه تتركز على الحاضر.²⁴

بجمل القول، بما أن البيانات التي تستخدم لإعادة بناء الماضي توجد حتما في الحاضر، فإن تحليلاتنا ستكون دائما وفق المركزية البشرية Anthropocentric وكذلك وفق المركزية الأرضية Geocentric الى حد ما. من ثم، يكون فن انجاز تحليلات تاريخية نجمة لتاريخ الكون بادئ ذي بدء، في التعرف عليها ثم التعامل مع البيانات تبعا لذلك. وهذا ليس سهلا. ورغم ذلك، يبدو أن هذا هو الأمر الوحيد المعقول الذي يمكن فعله.²⁵

وكما كان دافيد كريستيان يؤكد مرارا، فإن كل مجتمع معروف حكي قصصا حول كيفية نشأته، ونشأة كل شيء حوله. ومن وجهة نظر أكاديمية، يتم الآن اعتبار مثل هذه الحكايات أساطير نشوء، لكن هذا لا يعني أنه يجب اعتبار هذه القصص غير مهمة. على العكس، إنها تعطي غالبا اتجاهها مشتركا، أي هويات وأهداف. وحتى الآن فإن أغلب إن لم يكن كل، البشر تعرضوا إلى مثل هذه القصص بطريقة أو بأخرى. ومن غير المعروف أو المؤكد بالطبع، ما إذا كان كل الناس يؤمنون بها تماما وباستمرار. وبالتأكيد، يبدو من الحكمة الظن بأن الشكاكين كانوا موجودين في كل المجتمعات الإنسانية. ومع ذلك يجب الظن بأنه في أغلب، إن لم يكن في كل الجماعات البشرية المبكرة كانت الأغلبية تشترك في وجهات النظر هذه لأنه في الغالبية العظمى من الحالات، كان عدد وجهات النظر المتنافسة المتاحة عن العالم محدودة، هذا إذا كانت موجودة على أي حال.

24 - سباير، مرجع نفسه ص 22

25 - سباير، مرجع نفسه ص 23

خلال ظهور مجتمعات الدولة المبكرة بين 6000 و5000 سنة مضت، بدأت نخب الدولة الجديدة في ترويح قصص النشوء المفضلة لديها، بينما تم تهيمش الأنواع المنافسة غالباً. ولوقت طويل، كان أغلب، إن لم يكن كل هذه التواريخ الكبيرة الأسطورية محلية أو إقليمية في طبيعتها. ويعكس هذا حجم المجتمعات التي حكمت هذه القصص ومدى اتصالها بالمجتمعات الأخرى. على سبيل المثال، لا تتضمن وجهة نظر الإنكا الماضي الأزتيكي في المكسيك، ناهيك عن الأوروبيين، رغم أنه تم تفسير بعض قصصهم لاحقاً بأنها ترجع إلى الشعب الأبيض. كان مركز العالم هو منطقتهم الخاصة. وكانت مدينة كازكو العاصمة، على سبيل المثال، تعتبر سرّة العالم.²⁶

4. ملحوظات نقدية:

عندما صارت المجتمعات أكثر ضخامة وأكثر ترابطاً، انتشرت بعض قصص الخلق والنشوء هذه أبعد من ذلك وعلى نطاق أوسع، هذه القصص كان مصدرها الوحي الإلهي حسب اليهود والنصارى والمسلمين بينما زالت القصص والمعارف الأخرى أقل تأثيراً. وتتضمن الأمثلة الواضحة لقصص النشوء، سفر التكوين في التوراة، وقصص مماثلة في القرآن، والحكايات التاريخية الهندوسية. ولقد أدت عملية العولمة التي بدأت في القرن السادس عشر الميلادي إلى نشر قصص النشوء الخصوصية هذه مع تهيمش إن لم يكن انقراض كامل لأغلب الحكايات الأخرى المماثلة.

يمكن أيضاً تلخيص التاريخ الكبير على أنه يقدم نظرة عامة على صعود وزوال التعقيد بجميع أشكاله ومظاهره منذ بداية الكون. فإذا كان ممكن اتباع هذا النهج في التاريخ الكبير، فإن

الباحثين والعلماء بحاجة إلى إطار نظري يسهل علينا القيام بذلك. على السنوات مضت كان رواد هذا المشروع يفكرون في كيفية تطوير مثل هذه النظرية العامة للتاريخ الكبير. بالإضافة إلى التعقيد، يعتمد المخطط النظري للتاريخ الكبير على مصطلحين ماديّين مألوفين، وهما المادة والطاقة. تألفت جميع أشكال التعقيد في التاريخ الكبير من المادة، بينما تطلبت جميعها تدفقاً للطاقة لظهورها. يُعتقد أن نظامنا الشمسي، على سبيل المثال، قد ظهر نتيجة لتدفق الطاقة الذي أطلقه نجم متفجر، مستعر أعظم، وصل إلى نهاية حياته النجمية. كان من الممكن أن يؤدي هذا الانفجار الكوني إلى ضغط سخابة غبار كبيرة، والتي تقلصت لاحقاً تحت تأثير الجاذبية لتشكيل النظام الشمسي. أيضاً، يجب أن يكون ظهور الحياة قد تطلب مصدرًا للطاقة من نوع ما، ربما الطاقة المنبعثة من البراكين تحت سطح البحر، في حين أن جميع أشكال التعقيد التي أنتجها البشر لم يكن من الممكن صنعها أيضاً بدون تدفقات الطاقة.²⁷ اعتبر منتقدو التاريخ الكبير، بمن فيهم عالم الاجتماع المجري الكندي فرانك فوريدي Frank Furedi، أن هذا المشروع يعد "تحولاً مناهضاً للإنسانية في التاريخ".²⁸ فهو تحدي بالنسبة للتاريخ الكبير نفسه من حيث أنه فشل في التعامل مع منهجية انضباط التاريخ التقليدي. ويضيف المؤرخ وعالم التربية سام وينبورغ Sam Wineburg من جامعة ستانفورد، أن أنصار التاريخ الكبير يتجنبون تفسير النصوص التاريخية الموثقة من أجل الترويج لصالح اتجاه علمي بحث ودقيق، وهكذا سيصير تاريخ البشر مجرد معارف علمية افتراضية لا سبيل للاستدلال عليها. «القليل من التاريخ والكثير من البيولوجيا التطورية وفيزياء الكم».²⁹

²⁷ - KRAKAUER, DAVID C. & Ali. Op. cit.

²⁸ - "Big History: the annihilation of human agency". www.spiked-online.com. Retrieved 06th March 2024.

²⁹ - Sorkin, Andrew Ross (2014-09-05). "So Bill Gates Has This Idea for a History Class ..." The New York Times. ISSN 0362-4331.

ومما يؤخذ على هذه المدرسة أنها جعلت من موضوع التاريخ موضوعا واسعا وهائلا يصعب معه تحديد المنهاج والأدوات الضرورية لدراسته، مما سيتسبب في ميوعة نتائج أبحاثه وابتعاده عن الروح العلمية وبالتالي عن المصادقية التي يتسم بها علم التاريخ المتداول.

5. خلاصة

لقد كثرت المناقشات حول التاريخ، ومنها ما يعود إلى مواقف سياسية، فالنظرة الثقافية للإنسانية اليوم صارت متشائمة ومحدرة من الوضع الناتج عما يظهر أنه تطور، تطور في المناهج والمعارف والرؤى والأفكار التي كثير ما تتجنب القيم الإنسانية الأساسية. من المفروض أن الحوار والنقاش حول ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان اليوم، وكيف يمكنه المساهمة في صناعة التاريخ بشكل يحافظ على إنسانيته، وعن تراث البشرية العلمي والثقفي والإنساني. فالتاريخ ليس علما يسعى لصناعة الأساطير، بل هو معرفة علمية لاخترق الأساطير والدجل، وعلى هذا النحو يجب تدريسه وتعليمه وممارسته والاشتغال به.

6. ملحق لأهم رواد مشروع التاريخ الكبير

تزعم ديفيد كريستيان David Christian من جامعة ماكوارى، سيدني، أستراليا، مشروع التاريخ الكبير ومعه مجموعة من الباحثين في مجالات علمية متنوعة، وأهمهم فريد سبير Fred Spier من جامعة أمستردام، هولندا، والتر ألفاريز Walter Alvarez من جامعة كاليفورنيا، بيركلي، و كريغ بنجامين Craig Benjamin من الجامعة الحكومية غراند فالي، ألينديل، ميشيغان، سينثيا ستوكس براون Cynthia Stokes من جامعة دومينيكان في كاليفورنيا، أندري كوروتايف Andrey Korotayev من مركز التاريخ الكبير والتنبؤ بالنظام التابع لمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، موسكو... وغيرهم.

- سباير، فريد. (2015)، التاريخ الكبير ومستقبل البشرية، تر. عزت عامر، المركز القومي للترجمة، التنوير، القاهرة.

Bibliography

- Bryson, Bill, and Matthews, Richard. 2003. *A Short History of Nearly Everything* (Vol. 33). New York: Broadway Books.
- Christian, David. 2011. *Maps of Time: An Introduction to Big History* (Vol. 2). University of California Press.
- Cohen, Patricia. September 26, 2011. "History That's Written in Beads as Well as in Words." *The New York Times*. Retrieved December 13, 2012.
- Craig, Benjamin. July 2012. "Recent Developments in Big History." *History of Science Society*, Vol. 41, No. 3.
- Higitt, Rebekah. August 16, 2012. "(Pseudo) Scientific History." *The Guardian*. Retrieved December 13, 2012. <https://www.sociostudies.org/journal/seh/>.
- Krakauer, David C., Gaddis John, Lewis, and Pomeranz, Kenneth. *History, Big History, & Metahistory*. Santa Fe Institute Press. Retrieved March 6, 2024. <https://www.sfiipress.org/books/history-big-history-metahistory>.
- McPherson, Stephanie M. 2012. "5 Big Ideas That Just Might Transform the Classroom: From Longer Days to History Courses That Span 13.7 Billion Years, These Notions Just Might Transform the Classroom." *Boston Globe Magazine*. Retrieved December 13, 2012. <https://www.bostonglobe.com/magazine/2012/10/06/big-ideas-that-just-might-transform-classroom/SbrOrY1bEXcOZU0rDMLCGP/story.html>.
- Spier, Fred. 2008. "Big History: The Emergence of an Interdisciplinary Science?" *World History Connected*. Retrieved December 13, 2012.
- Star, Alexander. 2008. Review of *On Deep History and the Brain* by Daniel Lord Smail. *The New York Times*, March 16, 2008.
- Stearns, Peter N. 2005. *Growing Up: The History of Childhood in a Global Context* (Vol. 28). Baylor University Press. P. 9. https://books.google.dz/books?id=ISKWp-8aYgIC&redir_esc=y.
- Thorpe, Vanessa. October 27, 2012. "Big History Theories Pose Latest Challenge to Traditional Curriculum: Maverick Academic's 'Big History'." *The Guardian*. Retrieved December 13, 2012. <https://amp.theguardian.com/education/2012/oct/28/big-history-bill-gates-david-christian>.

مشروع التاريخ الكبير، هل هي محاولة إخضاع التاريخ لخدمة التطور؟
أحمد ربيعة

REVUE IMAGO
Volume 23 Issue 2 / Decembre 2024
